القسم الرابع

البداية والنهاية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

رجال الكلمة

obeikandl.com

obeikandl.com

104

لا تصعد الحركات الجماهيرية، عادة، إلا بعد أن تتم تعرية النظام القائم. وهذه التعرية لا تجيء عفويًا نتيجة أخطاء النظام وسوء استغلال السلطة، بل عن طريق عمل متعمد يقوم به رجال الكلمة الذين يحملون ظلامات ضد النظام. عندما يغيب القادرون على صياغة الكلمات، أو عندما يوجدون ولا يحملون أي ظلامة، فإن النظام القائم، مهما كان فاسدًا وضعيف الإرادة، قد يستمر في الوجود، حتى ينهار ويسقط من تلقاء نفسه. ومن ناحية أخرى، فإن النظام القائم سيحرم نفسه من كثير من القدرة والحيوية إذا فشل في اجتذاب هذه الأقلية المبدعة.

إن نشوء حركة جماهيرية وبقاءها، كما سبق أن رأينا، أمر يعتمد على القوة. والحركة الجماهيرية في عنفوانها ظاهرة مخيفة تتركز قيادتها في أفراد متطرفين يستخدمون الكلمة لإضفاء طابع العفوية على الاستسلام الذي حصلوا عليه بالقوة، إلا أن هؤلاء المتطرفين لا يستطيعون أن يتحركوا ويأخذوا زمام الموقف، إلا بعد تعرية النظام القائم وتجريده من شرعيته لدى الجماهير. ولا يمكن لهذا العمل التمهيدي، الذي يستهدف تقويض المؤسسات القائمة وتعويد الجماهير على فكرة التغيير وإيجاد الجو الملائم لقبول العقيدة

الجديـدة، أن يتم إلا عن طريق رجال هم، أولًا وقبل كل شيء، رجـال فكـر وأدب، يعـترف لهم الجميـع بهذه الصفـة. طالما ظـلّ النظام القائم يـؤدي واجباته على نحـو منتظم، فستظل الجماهـير متعايشـة معه. قد تفكـر الجماهـير في الإصلاح، ولكنهـا لا تريـد التغيـير الشامل. يبدو المتطـرّف في نظر هذه الجماهير خطـرًا أو خائنًا أو غير واقعي أو مجنونًا، ولن تكون علـى استعداد للاستماع إليه، اعترف لينـين بنفسه أن التربة عندمـا لا تكـون مهيَّأة للشيوعيـة (فإن الشيوعيـين سيجدون مـن الصعب عليهـم التواصل مع الجماهـير، أو حتى إقناعها بالاستمـاع إليهم)[1]. وفوق ذلك، فإن السلطات، حتى عندما تكـون ضعيفة ومتسامحة، تنزع إلى الـردّ بعنف على تحركات المتطرف، وقد تستمد من نشاطاته حيّوية جديدة.

إلا أن الأمـر يختلـف بالنسبة لرجل الكلمـة العادي، غير المتطـرف. تستمع الجماهير إليه؛ لأنهـا تدرك أن كلماته، وإن حملـت طابع الاستعجال، لا تستطيع تحقيـق نتائج فورية. كما أن السلطات تنزع إلى تجاهله نهائيًا أو استخدام وسائل ناعمة لإسـكات صوتـه. وهكـذا، ودون أن يشعـر أحـد، يمكن لرجل الكلمـة أن يهـدّد المؤسسات القائمـة، وأن يدين المتربعين على

(1) G. E. G Catlin, The story of the Political Philosophers, (New York: mc Graw- Hill Boot Company, 1939), p. 48.

مقاعد السلطة، وأن يُضعف الانتماءات والولاءات القائمة، وأن يهيئ التربة لحركة جماهيرية.

إن التفرقة بين رجال الكلمة والمتطرفين ورجال العمل، التي سترد فيما يلي، لا يجب أن تؤخذ على علاّتها. هناك رجال، مثل غانـدي وتروتسكي، بدؤوا حياتهم رجال كلمة لا تأثير لهم، إلا أنهم في وقت لاحق، أبدوا قدرة استثنائية على القيادة والإدارة. إن متطرفًـا مثل لينـين كان سيد الكلمـة الخطابية، بالإضافة إلى كونه رجلًا من رجال العمل. ما تستهدف التفرقة إيضاحه هـو أن تهيئة التربـة لحركة جماهيرية تـؤُدّى على أفضل وجه على يد رجال موهبتهم الأساسية استخدام الكلمة المسموعة أو المقروءة، وأن ولادة الحركـة الفعلية تتطلب مزاجًا ومواهب لا تتوافر إلا عند المتطرف، وأن استقرار الحركة وشكلها النهائي هو أساسًا مهمة الرجال العمليين.

عندما تظهـر على مسـرح الأحداث أقليـة تجيد صياغة الكلمـة، لم تكن موجودة من قبل، فإن ظهورها يمكن أن يشكّل حركة ثورية محتملة. قامت القوى الغربية على نحو غير مباشر، وربّما غير مقصود، بتهيئة الجو لحركات جماهيرية في آسيا، لا بسبب ما أثارته من نقمة ولكن بخلق أقليات مثقفة عن طريق التعليـم الذي كان، في معظمه، أهليًّـا وخيريًّا. تلقى عدد كبير مـن القادة الثوريين، في الهند والصين وأندونسيا، تعليمهم في

مؤسسات غربية محافظة. وكانت الجامعة الأمريكية في بيروت، التي يديرها ويدعمها مسيحيون أمريكيون أتقياء محافظون، مدرسة للثورة في العالم العربي الأميّ. ولا يوجد أدنى شك أن أساتذة المدارس التبشيرية المسيحية الأتقياء كانوا، من غير قصد، ضمن أولئك الذين أعدّوا المسرح للثورة الصينية.

105

ينتمي رجال الكلمة إلى عدة فئات مختلفة. قد يكونون قساوسة، أو كتابًا، أو فنانين، أو أساتذة، أو طلابًا، أو مثقفين عمومًا وإجمالاً. في بلد مثل الصين، حيث تصعب الكتابة والقراءة، يمكن أن يعدّ كلّ من تحرر من الأمية رجلًا من رجال الكلمة. وكان الوضع نفسه موجودًا في مصر الفرعونية، حيث كان فنّ الكتابة بالرسوم حكرًا على أقلية صغيرة.

ومهما كان نوعهم، فإن هناك رغبة مشتركة تجمع كل رجال الكلمة، وتحدد موقفهم من النظام القائم: الحرص على الاعتراف بهم، والحرص على حصولهم على وضع يميزهم عن العامة. قال نابليون: (الغرور والطموح صنعا الثورة؛ أما الحرية فكانت التبرير). يبدو أن هناك شعورًا بالنقص لا يمكن تجاوزه في داخل كل مثقف، سواء كان مبدعًا أو غير مبدع. ويبدو أنه حتى أكثر المثقفين إنتاجًا وموهبة يعيش في حالة دائمة من الشك في نفسه، ويحتاج إلى إثبات ذاته من

جديد كل يوم. ينطبق على المثقفين ما قاله رجل من رجال الكلمة عن زميل له في المهنة: (لديه من الاعتداد أكثر مما لديه من الطموح، وهو يؤثر التقدير على الطاعة، ويفضّل خيال القوة الوهمي على القوة الحقيقية، استشره أولًا، ثم افعل ما تريد. سوف يلاحظ ما تظهره له من احترام أكثر مما يلاحظ ما تقوم به من تصرفات[1].

هناك لحظة ما، في حياة كل رجل من رجال الكلمة تقريبًا، يمكن فيها اجتذابه إلى صف النظام عن طريق مبادرة سلام وتقدير يقوم بها الحاكمون. وهناك، في مرحلة من المراحل، استعداد لدى معظم رجال الكلمة للانضمام إلى النظام القائم وخدمته. هناك من يرى أن البابا لو منح لوثر رتبة الكاردينال لخفف ذلك من حماسته لقيادة الثورة ضد الكنيسة. وربما كان بالإمكان اجتذاب كارل ماركس[2] في شبابه إلى العمل في حكومة بروسيا؛ بعرض لقب رنان ووظيفة مهمة، كما كان من الممكن اجتذاب لاسال[3] بوظيفة مرموقة في البلاد. إلا

(1) Quoted by Alexis De Tocqueville, Recollections (New York: Macmillan Company, 1896, p. 33.

(2) كارل ماركس (1818–1883م) مفكّر ألماني وضع النظرية الشيوعية عبر كتابه الشهير «رأس المال» والمانفستو الشيوعيّ (المترجم).

(3) كان فرديناند لاسال (1825–1864م) من تلامذة ماركس، وأبرز قادة الحركة الشيوعية في ألمانيا (المترجم).

أنــه بمجرد أن يطور رجل الكلمــة فلسفة، ويعلن عن برنامجه، فسوف يكون مخلصًا لهما، ولن تجدي معه الوعود أو الوعيد.

إن الظلامات التي تحرك رجل الكلمة، بصرف النظر عما يدّعيه من أنه يمثل المسحوقين والمظلومين، هي، باستثناءات لا تكاد تذكر، ظلامات فردية وشخصية. قد يتحدث عن الرحمة، إلا أن مشاعــره الفعليــة نابعة من كراهيتــه للنظام القائم[1]. إن الذيــن يشعرون بحب نحو الإنسانيــة، بحيث يتمردون على الظلــم والمعانــاة، بالرغــم من عــدم تأثرهم شخصيًّــا بهما، أفراد نادرون[2] يعرض ثورو المسألة بوضوح تام: (إنني أعتقد أن الــذي يزعــج الصلح، مهما كانــت درجة تقــواه وصلاحه، هــو ألمــه الشخصــي وليــس الشفقة علــى الآخرين، ولــو حُلّت مشكلتــه الشخصية لتخلّى عن الآخريــن دون كلمة اعتذار[3]. عندما يعترف النظــام القائم بوضع مميّز لرجل الكلمة، فإنه سينخــرط في صفوفه وسيجد مــبررات نبيلة لوقوفه مع القويّ ضد الضعيف. كان لوثر، في بداية تمردّه على الكنيسة، يتحدث

(1) Multatule, Max Harelaar, (New York: Alfred A. Knopf, Inc 1927). Introduction by D. H. Lawrence.

(2) Bertrand Russell, proposed Roads to Freedom (New York: Blue Ribbon Books, 1931), Introduction, p. v 111.

(3) Henry Thoreau, walden, Modern Library Edition (New York: Random House, 1937), p. 70.

بحرارة (عن الفقـراء البسطاء المساكين)[1]. ولكنه، في وقت لاحـق، عندما احتضنه الأمـراء الألمان أعلـن (أن الله يفضل أن تكـون هناك حكومـة، مهما كانـت شريرة، علـى الفوضى التـي تتيـح للرعاع الإخـلال بالأمـن، مهما كانـت ظلاماتهم مشروعة)[2] وبيرك(*)، عندما تبناه اللوردات والنبلاء تحدث عن (الغوغاء الخنازيرية)، ونصـح الفقراء (بالصبر والجدّ والبعـد عن المسكـرات والتوفير والتدّيـن)[3]. لم يشعر رجال الكلمـة الذين جندتهـم النازية في ألمانيـا والبلشفية في روسيا بـأي دافع للوقوف مع المظلومين والمقموعين ضد القادة الطغاة وبوليسهم السّري.

106

لا يمكـن أن يطـول بقـاء عهـد مـا، برغم عـدم كفاءته، إلا إذا كان هنـاك غيـاب كامل للطبقة المثقفـة، أو كان هناك تحالف وثيق بين الحاكمين ورجال الكلمة. وعندما يكون جميع

(1) Quoted by Frantz Funck- Brentato, Luther, (London: Jonathan cape, Ltd, 1939) p. 65.

(2) Quoted by Jerome Frank, Fate and Freedom. (New York: Simon and Schuster, inc 1945), p. 281.

(*) كان أديموند بيرك (1729 -1797م) رجل دولة ومنظرًا سياسيًّا بريطانيًّا منحازًا إلى التفكير المحافظ (المترجم).

(3) Ibid, p. 133.

المثقفين من الكهنـوت، تصبح للكنيسة سلطة مطلقة. وعندما يكون جميع المثقفـين موظّفين، أو عندما يتمتعون بوضع متميز عن وضـع الآخرين، فإن النظام القائم سوف يكون بمنأى عن الاضطرابات والمعارضة.

انحـدرت الكنيسـة الكاثوليكيـة إلى أدنـى مستوياتها في القـرن العاشر أمام البابا جون الثاني عشر. كانت الكنيسة في تلـك المدة أسوأ بكثير منها في مدة الإصلاح البروتستانتي. إلا أنه، في القرن العاشر، كان جميع المثقفين من رجال الكهنوت. أمـا في القـرن الخامـس عشر نتيجة ظهـور المطابـع والورق، فلـم يعد التعليم حكـرًا على الكنيسـة. كان المثقفون، من غير الكنهـوت، طليعة الإصلاح. أما مثقفو الكنيسة المرتبطون بها، أو بالبابـا في روما والمتمتعـون بالمزايا (فقد أبـدوا الكثير من التسامـح نحو الأوضاع الكنسية وتجاهلـوا الانحرفات الدينية ولم يكونـوا، إجمالاً، يهتمـون (بالرعاع الذيـن ظلّوا في ظلام الجهل الذي يليق بوضعهم)[1].

كان استقرار الوضع في الصين الأمبراطورية، شأنها شأن مصـر الفرعونيـة، نتيجة تحالـف وثيق بين الطبقـة الحاكمة والمثقفين. إنه لمن المثير للانتباه أن تمرد تايبنج[*]، الذي يمثل

(1) «Reformation» Encyclopaedia Britannica.

(*) كان تمرد تايبنج (1850–1864م) إعصارًا دينيًا سياسيًا هز الصين من أقصاها إلى أقصاها وتجاوز عدد ضحاياها عشرين مليون نسخة (المترجم).

الحركة الجماهيرية الفاعلة الوحيدة في المدة التي شهدت حيوية الأمبراطورية، كان بقيادة مثقف فشل، المرة تلو المرة، في اجتياز الامتحان الحكومي الذي يؤهل لشغل المراتب العليا في الدولة[1].

إن بقاء الأمبرطورية الرومانية الطويل كان، إلى حدّ ما، نتيجة التحالف التام بين الحكام الرومان ورجال الكلمة اليونانيين. أحسّ اليونانيون المهزومون أنهم منحوا الفاتحين القوانين والحضارة وأنه لمن المذهل حقًّا أن نقرأ أن نيرون، الطاغية المستبد، والذي كان معجبًا بالحضارة اليونانية إلى حد الوله، استقبل بحماسة هيستيرية من قبل اليونانيين خلال زيارة اليونان 67 ق. م. اعتبره اليونانيون مثقفًا مثلهم وفنانًا مثلهم. (جمع اليونانيون، في محاولة للتقرب منه، جميع الألعاب في سنة واحدة، وأرسلت كل المدن اليونانية له جوائز مسابقاتها. وحيثما ذهب كانت هناك جموع في انتظاره تناشده أن يعزف ويغني[2]. وقام نيرون، بدوره، بإغراق اليونانيين في الهدايا والمنح.

(1) Rene Fullop Miller, Leaders, Dreamers and Rebels (New York: The viking & Press, 1935), p. 85.

(2) Ernest Renan, Anti christ, (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 245.

في كتابه «دراسة للتاريخ»، يستشهد البروفسور ا.ج. توينبي بالأشعار التي كتبها الشاعر كلوديان، المقيم في الإسكندرية، والتي يتغنى فيها بروما بعد خمسة قرون تقريبًا من دخول قيصر إلى مصر، ويضيف توينبي بأسى: «من السهل أن نثبت أن الاستعمار البريطاني في الهند كان، من نواح عدة، أكثر تسامحًا ونفعًا للناس من الأمبراطورية الرومانية، إلا أنه يصعب أن نعثر على مديح له يشبه مديح كلوديان في أي مدينة من مدن الهند[1]. ولعلّه ليس من الإغراق في الخيال أن نقول: لو أن البريطانيين في الهند، بدلًا من التحالف مع المهراجات والقيادات التقليدية حاولوا اجتذاب المثقفين الهنود وعاملوهم معاملة الند للند وشجعوهم وأشركوهم في السلطة لبقوا في الهند مدة أطول بكثير. إلا أن ما حدث هو أن حكام الهند البريطانيين كانوا من عقلية لا تستطيع التعامل مع المثقفين في أي بلد، وخاصة في الهند. كانوا رجالًا عمليين بعيدين عن النظريات يؤمنون بالتفوق الطبيعي للبريطانيين. في معظم الأحوال، لم يظهر هؤلاء الحكام سوى الاحتقار للمثقف الهندي، سواء بصفته رجل كلمة أو بصفته هنديًّا. حاول البريطانيون في الهند حصر كل الأنشطة في أيديهم، ولم يبذلوا مجهودًا

(1) Arnold. T. Toynbee, A study of History Abridgment by D. C. Somervell (Toronto: Oxford University Press, 1947) P. 294.

يذكـر لتشجيـع الهنود علـى أن يصبحوا مهندسـين، أو خبراء زراعيين، أو تقنيين مهرة. لم ينتج النظام التعليمي الذي أقاموه غير رجـال كلمة نظريين، والمفارقة هي أن هذا النظام بدلاً من أن يحمي الحكم البريطاني ساعد في نهايته.

كمـا أن فشـل بريطانيـا في فلسطين يرجـع، جزئيًّا، إلى انعدام التفاهم بين الموظفـين الاستعماريين البريطانيين وبين رجال الكلمة. كانت أغلبية اليهود في فلسطين، برغم انهماكهم في العمل، من رجال الكلمـة الذين يشعرون بحساسية مفرطة تجـاه الانتقـاد. كانوا يعانـون من الاحتقـار الـذي لمسوه لدى البريطانيـين الذيـن اعتـبروا اليهـود مشاغبـين لا يعترفـون بالجميـل الـذي أسـداه لهـم الحكـم البريطـاني بحمايتهم مـن العرب. كما أن اليهـود شعروا بالنقمة مـن الوصاية التي مارسهـا موظفون بريطانيون يفتقرون إلى الخبرة والذكاء. لو كان هؤلاء الموظفون يتمتعون بالذكاء والحكمة لبقيت فلسطين جزءًا من الأمبراطورية البريطانية(*).

في كل مـن الأنظمة النازيـة والبلشفية هناك شعور عميق بأهميـة العلاقـة المفصلية بـين الدولة وبين رجـال الكلمة. في

(*) جانـب المؤلف، هنا، الصواب، فقد كان هـدف الصهاينة، منذ البداية، إنشاء دولـة يهوديـة مستقلة، ولم يكونوا ليجـدوا من هذا الهدف مهمـا كان مستوى ذكاء الحكام البريطانيين (المترجم).

روسيـا يتمتع الكتاب والفنانـون والمثقفون بالمزايا التي تحصل عليها النخبة الحاكمة، بل إنه يمكن اعتبارهم جميعًا موظفين مـن درجة عالية لدى الدولة. وبرغم أنهم مجبرون على اتباع الخطـر الرسمي للحـزب، إلا أن الانضبـاط المفروض عليهم هـو الانضباط نفسه المفروض على النخبة الحاكمة، وفي حالة هتلر كان هناك نوع مـن الواقعية الشيطانية يستهدف التعليم حكرًا على النخبة التي ستحكم الأمبراطورية العالمية التي كان يحلم بها، بينما تبقى الجماهير في أميّة شبه كاملة.

107

يُعـدّ الكتّـاب الفرنسيـون في القـرن الثامن عشـر المثال التقليـدي لمثقفين فتحوا الطريق أمام حركة جماهيرية. إلاّ أن نمطًا مماثلًا يمكن أن يشاهد في الفترات التي تسبق قيام معظم الحركات الجماهيريـة هُيِّئَت التربة للإصـلاح البروتستانتي على أيدي المثقفين الذين سخـروا من كهنوت روما ونددوا به، وكان انتشار المسيحية السريع في الأمبراطورية الرومانية يعود، جزئيًّـا، إلى أن المذاهـب الوثنيـة التي حلـت المسيحية محلها أصبحـت مرفوضة تمامًـا. هوجمت هذه المذاهـب قبل ظهور المسيحيـة وبعدها، مـن قبل فلاسفـة اليونان الذيـن سخروا منهـا في المدارس والشوارع. ولم تستطـع المسيحية تحقيق أي تقـدّم في مواجهـة اليهودية؛ لأن هذه الديانـة الأخيرة حظيت

بولاء متحمسة من قبل رجـال الكلمة اليهود. كان الحاخامات وتلامذتهم يتمتعون بموقع ممتاز في حياة اليهود اليومية، حيث تضافرت المدرسـة والكتاب للوقوف مع المعبد ومع التراب. ولو تصورنا نظامًا يتمتع فيه رجال الكلمة بسلطة مطلقة، فسيكون نظامًـا مُحصّنًا ضد أي معارضة مـن الداخل وضد أي حركة جماهيرية في الخارج.

كانـت الريادة في قيام الحـركات الجماهيرية المعاصرة، سـواءً كانـت اشتراكيـة أو قومية، دومًـا للشعـراء والمؤرخين والباحثـين والفلاسفـة، ومـن إليهـم. والعلاقة بـين المثقفين المنظّريـن وبـين الحـركات الثوريـة لا تحتـاج إلى تأكيـد. إلا أنـه من الضـروري أن نلاحظ أن الحـركات الوطنية كلّها من الثورة الفرنسيـة إلى آخر تمرّد في أندونسيا لم يوجدها رجال عمليـون، بل مثقفـون هاجموا الأوضاع السائـدة. إن الضباط الكبـار ومالكي الأراضـي ورجال الأعمال الذيـن يعدّون رموز الحركـة الوطنية لا يصعدون على المسرح، عادة، إلا متأخرين بعـد ظهور الحركة وبدأ نشاطهـا. إن الجهد الأكبر المبذول في المرحلـة الأولى من أي حركة وطنيـة تنصب على إقناع الرموز الوطنيـة المشـار إليهـا واجتذابهـا إلى صفـوف الحركة. قال المـؤرخ التشيكي بالاكي: (لو أن السقف انهـار ذات ليلة عليه، وعلـى عدد من رفاقه خـلال تناولهم العشـاء، لما كانت هناك

حركة تشيكية وطنية) [1]. كان هناك، دومًا، عدد محدود من رجال الفكر غير العمليين وراء جميع الحركات الوطنية.

صاغ المثقفون الألمان فكرة القومية الألمانية كما صاغ المثقفون اليهود فكرة الصهيونية. إن شوق رجل الكلمة إلى موقع متميّز هو الذي يجعله مفرط الحساسية تجاه أي إهانة توجه إلى الطبقة أو الجماعة التي ينتمي إليها، سواء كانت عرقية أو لغوية أو دينية، ومهما كان الانتماء سطحيًا. كانت الإهانة التي وجهها نابليون إلى الألمان، وإلى البروسيين تحديدًا هي التي دفعت عددًا من المثقفين الألمان إلى دعوة الجماهير إلى الاتحاد في دولة قوية تستطيع السيطرة على أوروبا. وكان هرتزل(*) ورفاقه مدفوعين إلى الصهيونية؛ نتيجة الإهانات التي تلقاها ملايين اليهود في روسيا، ونتيجة المآسي التي تعرض لها اليهود في أوروبا مع نهاية القرن التاسع عشر. وإلى حد ما، وجدت الحركة الوطنية التي أخرجت بريطانيا من الهند بدايتها في الإهانات التي لاحقت غاندي في جنوب أفريقيا.

---

(1) Carlton J. h Hayes, The Historical Evolution of Modern Nationalism (New York: R. R. Smith, 1931), p. 294.

(*) تيودور هرتزل (1860–1904م) الكاتب الهنغاري أول من تبنى فكرة الدولة اليهودية ومن أوائل الذين أسسوا الحركة الصهيونية (المترجم).

108

من السهل أن نرى كيف يستطيع رجال الكلمة عن طريق الانتقادات المستمرة والسخرية المطردة أن يهزوا العقائد والولاءات القائمة. إلا أنه يصعب أن نتوقع الكيفية التي تتحول عبرها هذه الإدانة إلى عقيدة جديدة. ما يثير الانتباه هو أن رجل الكلمة النشيط الذي يتابع النظام القائم ويكشف ضعفه وظلمه[1] كثيرًا ما يهيئ المسرح لا لمجموعة من الأفراد المستنيرين، بل لحركة شمولية همها الأول والأخير فرض الوحدة ونشر الولاء المطلق. وهكذا نرى أن انتشار التذمر من نظام ما، وزوال هيبته كثيرًا ما يقود إلى نتائج غير متوقعة، ما أبدته مرحلة النهضة من احتقار للأوضاع القائمة فتح الباب أمام تطرف جديد جسدته حركة الإصلاح البروتستانتي والحركة المناوئة لها. كما أن المثقفين الفرنسيين الذين هاجموا الكنيسة والتاج في القرن الثامن عشر، ونادوا بالتسامح وتحكيم المنطق أثاروا مدًّا عنيفًا من التطرف الثوري والقومي استمر مدة طويلة. وكل ما فعله ستالين ورفاقه بعد أن هاجموا الأديان والنشاط التجاري المحموم هو أنهم أدخلوا تطرفًا جديدًا تجسّد في الشيوعية والاشتراكية والوطنية الستالينية والرغبة في السيطرة على العالم بأسره.

(1) Pascal, Pensees.

إننا عندما نهاجم عقيدة أو نزعة متطرفة لا نقضي على جذور التطرف، بل نمنع تسربه من نقطة مُعينة، الأمر الذي قد ينتج عنه تسربه من نقطة أخرى. وهكذا نرى أن رجل الكلمة المعارض بانتقاض الولاءات والعقائد القائمة يخلق في الجماهير، دون قصد، شوقًا إلى عقيدة جديدة. لا يستطيع معظم الناس تحمل ما في حياتهم من خواء وخيبة إلا إذا كان لديهم ولاء قويّ، أو مجهود دائب يمكن أن ينغمسوا فيه كلية. هكذا يصبح رجل الكلمة المعارض، شاء أو لم يشأ، مبشرًا بعقيدة جديدة.

إن المثقف الحقيقي ليس بحاجة إلى الإيمان المطلق بقضية ما. بوسعه أن يعدّ البحث عن الحقيقة في أهمية الحقيقة ذاتها، وأن يستمتع بصراع الأفكار، وما يثيره الجدال من حيوية. حتى عندما يطوّر هذا المثقف فلسفة ومذهبًا، فإنه يفعل ذلك ليثبت ذكاءه وقدرته دون أن يعدّ ما قام به برنامجًا يتطلب التنفيذ، أو عقيدة يجب الالتزام بها. صحيح أن غروره قد يقوده إلى الدفاع عن نظرياته بصلابة وعنف إلا أنه، برغم ذلك، يحتكم إلى المنطق، لا إلى الإيمان الأعمى. إلاّ أن الجماهير المتعطشة إلى الإيمان، بقيادة المتطرفين، كثيرًا ما تضفي على هذه النظريات عصمة الكتب المقدّسة وتجعل منها نواة دين جديد. لم يقل المسيح: إنه مسيحي، ولم يقل ماركس: إنه ماركسي.

تلخيصًا لما تقدم يمكن أن نقول: إن رجل الكلمة المعارض يهيئ التربة لقيام حركة جماهيرية، وذلك:

أولًا: بانتقاص المذاهب والمؤسسات القائمة وزعزعة شرعيتها عند الناس.

ثانيًا: بأن يوجد، بطريق غير مباشر، جوعًا إلى الإيمان في قلوب أولئك الذين لا يستطيعون العيش من غير هذا الإيمان، بحيث تلقى العقيدة الجديدة حين تجيء قبولًا حارًّا من الجماهير المحبطة.

ثالثًا: بأن يصوغ العقيدة الجديدة وشعاراتها.

رابعًا: بأن يهاجم «الصفوة» التي لا تحتاج إلى عقيدة على نحو يفقد أفرادها القدرة على مقاومة التطرف الجديد حين يجيء. يصبح هؤلاء مقتنعين أنه لا جدوى من الموت في سبيل المبادئ التي يؤمنون بها ويستسلمون للنظام الجديد بلا مقاومة[1].

هكذا يصبح المشهد عندما ينهي رجل الكلمة المعارض مهمته: (يفتقر أفضل الناس إلى المبادئ، بينما تسود الحماسة الجارفة أسوأ الناس. وعندها يقال: إن هناك شيئًا جديدًا

(1) جاء في رسالة كتبها مصري في هولندي: «لانود نحن الهولنديين أن نصبح شهداء، شأننا شأن معظم معاصرينا الذين لا يريدون الاستشهاد». انظر:
Demaree Bess, «The Bitter Fate of Holland» Saturday Evening Post Feb, 1, 1941.

سينــزل: لا بد أن عودة المسيــح قد اقتربت)[1] أصبح المسرح، الآن، جاهزًا للمتطرفين.

109

إن الأشخاص المأساويين في تاريخ الحركات الجماهيرية هم، عادة، المثقفون الذين مهّدوا للحركة، والذين عاشوا ليروا سقوط النظام القديم على يد الجماهير.

إن الوهم السائد الذي يذهب إلى أن الحركات الجماهيرية تولد من عزم الجماهير على التخلص من الطغيان وشوقها إلى الحريــة يعود إلى ضجيــج الكلمات التي أطلقهــا المثقفون ضد النظــام القائم. إلا أن الواقع يقــول: إن الحركات الجماهيرية خلال صعودها تمنح، عادة حريات أقل من التي كانت موجودة في عهــد النظام القديم. و كثيرًا مــا ينسب هذا إلى مكر الفئة المتسلطة التــي خطفت الحركة في بدايتها، وحرمت الجماهير مــن فجــر الحرية الــذي يوشــك أن يشــرق. إلا أن الأشخاص الوحيديــن الذيــن خُدعوا هــم -في الواقــع- المثقفون. تحرك المثقفــون ضــد النظــام القائم، يعيبــون عليه عــدم عقلانيته وعدم كفاءتــه، ويشككون في شرعيته ويدينون ظلمه، مطالبين

(1) William Butler Yeats, «The Second comine» Collected Poems (New York: Macmillan Company, 1933.

بالحريــة، معترضــين أن الجماهير التي تستجيــب لنداءاتهم وتصطــف وراءهم تؤمــن بالأهداف ذاتهــا. إلا أن الجماهير، في الحقيقة، لا تتــوق إلى حرية التعبير وتحقيق الذات، بل إلى التحــرر من العبء الثقيــل الذي يخلقه وجود الفــرد المستقلّ. إنهــا تريد الحرية (من ذلك القيد الثقيل: حرية الاختيار)[1] إنها تريد الخلاص من المسؤولية الثقيلة التي يواجهها الأفراد المحبطــون، والتــي تتطلــب منهــم العيش مــع أنفسهــم التي يكرهونها وتحمــل المسؤولية عن أعمالهــم. لا تريد الجماهير حريــة الضمير، ولكنها تريد الإيمان، الإيمان الشامل الأعمى. والجماهير التي تطيــح بالنظام لا تود إقامة مجتمع من أفراد أحرار مستقلين، بل بناء مجتمع يتميز بالتماثل ويجسد الوحدة التامة ويلغي الهويات الفردية.

لم تكن ثورة الجماهير منصبة على شرور النظام القديم، بل على ضعفه؛ لا على ظلمه، بل على فشله في تحويل الجماهير إلى كيــان قويّ موحد. إن رجل الكلمــة المعارض لا يقنع الناس بمســاوئ النظام القديم بقدر مــا يقنعهم بضعفه وعجزه، وما تفعله الحركة الجماهيرية يتمشى، عادة، مع رغبات الناس ولا يمكن القول: إن الحركة خدعتهم.

(1) Fedor Dostoyevsky, The Brothers Karamazof Book V, Chap, 5.

ينتظـر المثقفـين الذيـن ساعـدوا علـى ولادة الحركـة الجماهيرية مصيرٌ مرعبٌ، يظل هؤلاء المثقفون، مهما مجَّدوا العمل الجماعي، فرديين في تصرفاتهم وإفكارهم، يؤمنون أن السعـادة يمكن أن تكون فرديـة، كما يؤمنون بالـرأي الفردي والمبـادرة الفرديـة، إلا أنه بمجرد أن تبـدأ الحركة عملها تقع السلطـة في يـد أولئك الذين لا يؤمنون بالفـرد، ولا يقيمون له أي وزن. والسبب الذي يجعلهم مسيطرين على الموقف لا يكمن في استخفافهم بحقوق الفـرد والقوة التي يستمدونها من هذا الاستخفـاف، ولكن من كون موقفهم مـن الفرد يتمشى تمامًا مع عواطف الجماهير الملتهبة.

obeikandl.com